جمهورية مصر العربية	٢٤ صفر ١٤٤٣هـ
وزارة الأوقاف	١ أكتوبر ٢٠٢١م

(١)

إعمال العقل في فهم النص

الإمام أبو حنيفة ومدرسته الفقهية أنموذجًا

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}، وأشهدُ أنْ لاَ إلـهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا مُحَمَّدًا عَبدُه ورسوله، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيهِ، وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بِإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ، وبعد:

فقد اهتم الإسلام بالعقل اهتمامًا بالغًا، وذلك لأن العقل مناط التكليف، كما أن حفظ العقل مقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية، وأحد الكليات الست التي اتفقت كافة الشرائع والأديان على حفظها.

وقد أرشدنا ربنا (عز وجل) إلى استخدام نعمة العقل في التفكر والتأمل في ظواهر الكون للوقوف على عظمته (سبحانه وتعالى) ووحدانيته، حيث يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، ويقول سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ} كما أن المتتبع للبيان القرآني يلاحظ الحض على التعقل والتفكر بصيغ متعددة، نحو قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، { أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، {لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، {لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}.

والمتأمل في الشريعة الإسلامية يجد أنها قد حثت العلماء على إعمال العقول بالاجتهاد لاستنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية، بما ييسر للناس أمور حياتهم، وتنصلح به أحوال معاشهم ومعادهم، مع الحفاظ على ثوابت الشرع

الشريف وعدم المساس بها، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ).

ومما لا شك فيه أن الإمام أبا حنيفة النعمان (رحمه الله) صاحب المذهب الحنفي المشهور كان رائد مدرسة إعمال العقل في فهم النصوص، فقد رزقه اللهُ تعالى عقلًا واعيًا، فلم يكن مقلدًا، ولم يقف عند ظاهر النص؛ بل نظر إلى مراميه ومقاصده، لذا أصبح الإمام رحمه الله رائد مدرسة العقل في التعامل مع النصوص، حتى قال العلماء عنه: الناس عالة في الفقه على أبي حنيفة.

وقد راعى الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) في مدرسته الفقهية الزمان، والمكان، وأحوال الناس، وعاداتهم، وطبائعهم، فكان مما توسع فيه من الأدلة أدلة القياس، والاستحسان، والعرف، معتمدًا في ذلك على حديث سيدنا معاذ (رضي الله عنه)، حين قال له النبي (صلَّى الله عليه وسلَّم) لما بعثه إلى اليمن: (بمَ تقضي؟)، قال: بكِتاب الله تعالى، قال: (فإن لَم تجِد؟) قال: بسُنة رسول الله (صلَّى الله عليه وسلَّم) قال: (فإن لم تجد؟)، قال: أجْتهِد في ذلك رأيي، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: (الحمدُ لله الذي وفَّقَ رسولَ رسولِ الله (صلى الله عليه وسلم)، وغيره من الأحاديث الحاثَّة على إعمال العقل في فهم النص في إطار المقاصد العامة للتشريع.

***

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن الأديان جاءت لسعادة الناس لا لشقائهم، حيث يقول الحق سبحانه: {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}، ويقول تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ

حَرَجٍ}، ويقول سبحانه: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، وما خُيِّر نبينا (صلى الله عليه وسلم) بين أمرين إلَّا أخذ أيسرَهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد النَّاس منه؛ ولذلك فإنه لا غنى عن إعمال العقل في فهم صحيح النص وفي تطبيقاته، وفي إنزال الحكم الشرعي على مناطه من الواقع العملي.

على أننا نؤكد أنه ينبغي على الفقيه أن يُلم بأحوال ومستجدات عصره، وواقع الناس وعاداتهم وتقاليدهم؛ ليكون قادرًا على إنزال الفتوى على مظانها، وظروف عصرها، لا على مظان وأحوال عصور أخرى مختلفة، فمن أفتى الناس دون النظر إلى واقع زمانهم، ومكانهم، وطبيعة حياتهم وعصرهم، عرَّضهم للعَنَت والمشقة، في حين أن شريعتنا الغراء قائمة على اليسر والسعة ورفع الحرج.

اللهم فقهنا في ديننا، واحفظ بلادنا وسائر بلاد العالمين